الوضع الصحي لسكان الجزائر في العهد العثماني

أ/ قندوز عبد القادر، جامعة تيارت

الملخص:

إن الواقع الصحي في الجزائر خلال العهد العثماني، من الموضوعات الهامة في تاريخ الجزائر الحديث لما يحمله من معلومات عن الواقع الصحي آنذاك، إذ من خلاله نستطيع إعطاء صورة ولو بسيطة عن مختلف الأوبئة والأمراض الموجودة في ذلك العهد، ومدى انتشارها وتأثيرها على الأوضاع العامة للسكان، وكذلك التعرف على سياسة الحكام تجاه ذلك بالنظر الى انشغالاتهم السياسية والعسكرية الكبيرة في تلك الفترة، ومن اجل ذلك تطرقنا إلى هذا البحث للتعرف على الأمراض والأوبئة التي عاشها سكان الجزائر آنذاك بالإضافة الى مختلف أدوات الاحتراز والعلاج التي استخدموها لمواجهة هذا الواقع الصحي السيئ، وكذا موقف السلطة العثمانية التي كانت في اغلب سياساتها بعيدة عن معاناة السكان.

The health situation in Algeria during the Ottoman era, is one of the most important subjects in modern Algerian history as it has important information on the health situation at the time, it can also give an image, even simple about the various epidemics and diseases existed in that period, and the extent of its spread and its impact on general population, as well as identifying governors' the referees policy toward it, given the political and military big, elitist in that period, and for that we talked to this research to identify diseases and epidemics experienced by the population of Algeria at the time, in addition to various precautionary and treatment tools they used to face this health situation bad, as well as the position Ottoman power, which was in the most distant from the suffering of the population policies.

الكلمات المفتاحية: health, Algeria, Ottoman, epidemics, Disease, Medicine

مقدمة:

تعتبر دراسة الوضع الصحي للجزائر في العهد العثماني من الدراسات المهمة في تاريخنا الحديث للوقوف على الحالة السيئة التي عرفتها الجزائر آنذاك، من جراء انتشار الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية، والتعرف أكثر على تأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية، حيث أثرت سلبا على استقرار الحالة الديموغرافية والاجتماعية للسكان، ومن أبرز تلك الظواهر المرضية على الإطلاق مرض الطاعون كأخطر وباء عانت منه كل الفئات الاجتماعية، بما فيها السلطة الحاكمة و العناصر الأجنبية المقيمة بالبلاد بالإضافة إلى الأوبئة الأخرى كالتيفوس، الكوليرا، الجدري وغيره، وهذا الوضع أدى إلى ردود أفعال متباينة من قِبل كل من السلطة الحاكمة والسكان، فالسلطة الحاكمة إزاء هذه الأوبئة والكوارث اتخذت موقفا سلبيا على الأغلب، أما السكان فكانوا بين الاستسلام للمرض كقدر ومكتوب لابد من القبول به، وبالتالي رفضوا الاحتراز و

التداوي من هذه الأوبئة أو اللجوء إلى الأطباء الذين غالبا ما خلطوا بين الطب العلمي والطب الروحاني، القائم في أغلبه على خزعبلات وطقوس تكرس ثقافة الشعوذة والخرافة، أو طرق علاجية موروثة عبر الأجداد أثبتت فعاليتها وأشاد بها الأجانب.

1 -الأوضاع الصحية في الجزائر:

لقد شهدت الجزائر منذ بداية الحكم العثماني إلى نهايته، فترات صعبة تدهورت خلالها الأوضاع الصحية، تاركة آثارا سيئة على نمو السكان وأحوالهم الاجتماعية، كما صاحب ذلك ركود اقتصادي وانكماش عمراني، وانتشرت الأمراض بشكل يثير الانتباه خاصة في أواخر القرن الثامن عشر ميلادي[لخ].

ومن بين أهم الأمراض المنتشرة في تلك الفترة الطاعون[بر]، الكوليرا، التيفوس، الجذري، السل، الرمد ... الخ، ولعل أخطرها الطاعون الذي ترك بصمات خطيرة على البنية الاجتماعية الجزائرية، إذ كان يتردد عليها باستمرار حتى أطلق عليه "المرض القاطن أو المستوطن"[تر]. إذ شكل الطاعون أخطر مرض عانت منه كل الفئات الاجتماعية بالجزائر خلال العهد العثماني، كما تعرضت إلى ضرباته الحادة كل العناصر الأجنبية المقيمة بالبلاد، لقد تكرر ظهوره في شكل تواتر حلقات متعاقبة إذ أن الوباء كان يتكرر كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما[بر]، مما تسبب في انهيار ديمغرافي و أدى إلى تدهور الوضع الصحي الذي اثر بدوره سلبا على اقتصاديات البلاد تاركا تشوهات خطيرة في البنية الاجتماعية[سم].

كما شكلت الأمراض الأخرى، والكوارث الطبيعية، بيئة جزائرية غير صحية طيلة العهد العثماني، أثرت بدورها بصورة مباشرة على سكان وعلماء الجزائر التي أدى الطاعون إلى هلاك العديد منهم مما ترك أثارا سلبية على الواقع الثقافي آنذاك، وفي الوقت نفسه ساهم في ظهور العديد من المؤلفات التي بينت ماهيته وخطورته، مثل رسالة "الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون" لمحمد بن رجب الجزائري، و"ما رواه الواعون في أخبار الطاعون" لأبي راس الناصري وغيرهما، أما بالنسبة للأمراض الأخرى فكان بعض العلماء وأشباههم يركبون الأدوية من النباتات المتوفرة في البلاد ويضعون المعاجين والأشربة ويستعملون وسائل الكي والحجامة، ونحو ذلك وقد وضعوا مجموعة من الوصفات للتغلب على بعض الأمراض الشائعة، كوجع الرأس والمعدة والحروق والإصابات الجلدية وضعف الأعضاء التناسلية ووجع المفاصل وغيرها[شه]، وكل ذلك نلاحظه في فيما يلي:

أ - الأوبئة:

1 - الطاعون: أعتبر أخطر وباء عرفته الجزائر، لتواجده باستمرار في بلادنا مقارنة بالأمراض الأخرى[لم]، حيث أن بداياته في الجزائر خلال العهد العثماني ترجع إلى عام 1535م، فيذكر دي غرامونت (De Grammont) أنه في هذه السنة « اشتدت المجاعة بالسكان، كما هلك العديد من سكان مدينة الجزائر جوعا، نتيجة جنوح سفينة محملة بالقمح آتية إلى ميناء الجزائر »□، وفي ذلك نلاحظ أن الموانئ شكلت ممرا

دائما لانتقال الوباء على كل الفترات لصلة الجزائر بعالم البحر المتوسط (توافد التجار، البحارة، الحجاج، الطلبة، إلى الجزائر).

كما عرفت مدينة وهران في سنة 1542م انتشارا للوباء في عهد حسن أغا، وقد ذكر ذلك كل من هايدو Haedo، بربروغر Berbrugger، غيون Guyon، رينو Raynaud، و نتج عنه خسائر بشرية كبيرة جعلت الأسبان يغادرون المدينة، واستمر حتى عام 1545م توفي خلاله حسن أغا في سن ست وخمسين سنة[□]، وفي عام 1552م ضرب الوباء الجزائر بشكل عنيف منتقلا إليها من الأسطول البحري الذي أرسله السلطان العثماني صالح رايس إلى الجزائر أثناء حربه مع الأسبان، وقد عرف الوباء انتشارا واسعا في مدينة الجزائر والمناطق الغربية من البلاد حيث مس الوباء كل من وهران وتلمسان، وقدر عدد ضحاياه بتسعة آلاف ضحية[لح لخ].

وتسبب الوباء في مدينة تلمسان خلال نفس السنة في وفاة أبرز الفقهاء والأعيان منهم أربعة من عائلة العقباني، والمفكر الفيلسوف محمد بن عايس الكبير والشيخ سيدي محمد بن الشيخ مزيان[لخ لخ]، وفي منتصف القرن السادس عشر كانت ضربات الطاعون شديدة على سكان الجزائر، خاصة مدينة الجزائر الذي جعل أعداد الضحايا يتزايد كل يوم[برلخ]، وتوفي إثره صالح رايس عن سن السبعين ويوسف باشا وعمره لا يتجاوز 26 سنة، كما ذهب ضحية الطاعون سنة 1557 يحي باشا[ترلخ]، واستمر الوباء حتى نهاية القرن السادس عشر.

ويمكن أن نشير إلى أن الطاعون لم يكن وباءا خاصا بالجزائر فقط بل كان عاما على كل ايالات الإمبراطورية العثمانية وأوروبا، حيث إنه يرتبط أساسا بالاضطرابات الجوية والمناخية من جفاف وفيضانات[برلخ]، إضافة إلى اجتياح الجراد المسبب للقحط والمجاعات. ومع بداية القرن السابع عشر ميلادي عرف الوباء انتشارا واسعا، ابتداء من عام 1601م إلى غاية 1614م، بسبب الجفاف الكبير الذي دام تسع سنوات وقد ترتبت عنه مجاعات حادة خاصة بمدينة قسنطينة التي فتك بها الطاعون بخلق كثير[سملخ]، كما احدث بمدينة الجزائر 700 وفاة يوميا[شملخ]، وفي عام 1620م عاد الوباء من جديد بشكل اخطر حيث أطلق عليه السكان "الحبوبة الكبيرة"[لهلخ] لشدة انتشاره بالأرياف والحواضر، ولم تسلم من الطاعون حتى المناطق الجنوبية ففي مدينة بسكرة التي زارها العياشي سنة 1649م أثناء رجوعه من الحج، يذكر أنه سبب وفاة العالم السيد أبي الطيب القصير وأصحابه، إذ أصبحت مساجد ومنازل المدينة خالية[□لخ].

وهكذا استمر الوباء طيلة النصف الأول من القرن 17م، وفي النصف الثاني من القرن 17م استمر الوباء بعنف شديد حيث بين سنتي 1654م - 1666م ضرب كل من وهران، بجاية، وقسنطينة، إذ كان يقتل حوالي 500 شخص في يوميا[□لخ]، وأرجع دي غرامون سبب الوباء إلى حركة رياس البحر الذين نقلوا العدوى من المناطق المصابة إلى الجزائر، و سبَّب وفاة عشرة آلاف أسير[لح بر]. وبقي الوباء منتشرا في كل الايالة الجزائرية بشكل تصاعدي خطير حيث قدرت أعداد ضحاياه في أواخر القرن 17م، ما بين 25000 إلى 45000 ضحية سنويا[لخ بر].

استمر الطاعون في تدمير البنية الديموغرافية لسكان الجزائر في القرن 18م، حيث نلاحظ في عام 1718م أن الوباء تسرب من سفينة انجليزية معدية آتية من الإسكندرية كانت محملة بالأقمشة، وقد توفي ربانها وركابها نتيجة هذا الوباء برىر، كما عرفت سنة 1740م عودة الوباء نتيجة المجاعة الشديدة التي عرفتها الجزائر عام 1738م، و تسبب في خسائر بشرية هامة حيث بلغ عدد الضحايا نسبة يومية تتراوح ما بين 200 و400 وفاة ترىر، ويشير الورتلاني في رحلته إلى الوباء على أنه أضر ببسكرة وضواحيها ومات من جرائه آلاف من السكان، وكاد يفنيهم عن بكرة أبيهم برىر.

وتكررت فترات الوباء طيلة القرن 18م، فوباء 1752م، 1762م حسب مارشيكا تسبَّبت فيه وفود الحجيج الذين وصلوا إلى ميناء الجزائر، أما الفترة الممتدة بين 1778م -1804م فعاد الوباء بقوة بعد هدوء نسبي، حيث وصل عدد الأموات في 1786م أحيانا إلى 500 جنازة كل يوم وسمي بالوباء الكبير، قيل انه وصل من بر الترك في مركب رجل يدعى إبن سمايا امتد إلى سنة 1786مسه بر، وكانت آثاره السلبية التي أخلت البلاد وأفنت العباد فكتب الزياني « وكان عاماً من العمائر التي بينها وبين الجزائر، فما نزلنا منزلاً إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم »شه بر.

وفي القرن التاسع عشر شهدت الجزائر ضربات موجعة للطاعون في الفترة مابين 1817م إلى 1822 م، حيث تسبب في وفاة أعداد كبيرة من السكان، وقد ذكر نقيب الأشراف أحمد شريف الزهار ذلك قائلا: « وفي سنة 1239هـ انقطع الوباء من الجزائر وقد حل بها في رجب 1232هـ وبقي سبع سنين لم بر»، وقال أيضا : « وبعد شهرين ونصف من ولاية الداي حسين 1234 هـ كان الوباء قد أشعلت ناره وقت الضحى وصلت مائة جنازة »□ بر، كما تعرضت مدينتي وهران ومعسكر سنة 1819م إلى الوباء، إذ كان يقتل يوميا مابين 30 و40 فردا□ بر.

ومما يمكن تسجيله أن كل الأمراض الطاعونية في هذه الفترة كانت قد انتقلت من خارج الجزائر عبر موانئها، ففي مدينة الجزائر بتاريخ 08 جويلية 1817م تسرب مرض الطاعون من سفينة تركية كانت قد رست بالميناء، فكان يهلك حوالي 50 فردا يوميا لح تر، وفي مدينة عنابة التي أصابها الوباء في نفس السنة كانت أعداد الوفيات بين 10 و15 شخص يوميا تسببت فيه سفينة الحجاج، وكذا بالنسبة إلى وهران حيث كان الناس يموتون في الشوارع لخ تر، وفي سنة 1822م بدأ الوباء بالاختفاء، حيث كانت هذه السنة خاتمة للسنوات التي تضررت منها الجزائر العثمانية بوباء الطاعون بر تر.

ويمكننا إرجاع خلو الجزائر من الوباء في الفترة مابين 1822م -1830م، مقارنة باستمراره بقوة في مناطق أخرى بعنف شديد مثل مصر، إلى عدة عوامل أهمها الحصار البحري الذي فرضه الأسطول الانجليزي أولا ثم الأسطول الفرنسي على السواحل الجزائرية، مما حدَّ من حركة انتقال التجار والحجاج إلى الجزائر أو الخروج منها.كما ساهم كذالك قلة القادمين من الولايات العثمانية أو حتى اسطنبول في تراجع الإصابة بالوباء، بفعل انخفاض عدد المجندين خاصة بعد قيام السلطان العثماني محمود الثاني بالثورة على الجيش الانكشاري عام 1826م، وهذا ما قد يثبت لنا أن وباء الطاعون الذي تعرضت له الجزائر في كل الفترة العثمانية، كان

بتنقل عن طريق البحر أي بواسطة سفن الحجاج وغيرها التي كانت تأتي من أقطار وأماكن مصابة بالداء، وتدخل إلى الموانئ لاسيما مصر والحجاز واسطنبول ترتر.

ب - الأوبئة الأخرى:

بالإضافة إلى وباء الطاعون الذي اعتبر اخطر الأوبئة على الجزائر، والذي سجل حضوراً سيئاً في كل الفترة العثمانية، كما يمكن تسجيل أوبئة أخرى خطيرة كانت محدودة زمنيا ومكانيا خلال تلك الفترة منها:

- وباء الجذري (LA Variole): أرجع المؤرخون وجود داء الجذري في منطقة شمال إفريقيا إلى ثلاثة آلاف سنة ماضية، واعتبروه من أخطر الأمراض التي تفتك بالسكان، إذ كان يصيب البلاد مرة كل أربع سنوات تقريبا ﺑﺮﺗﺮ، وفي فترة الحكم العثماني تم تسجيل وباء الجذري في الجزائر في بداية القرن السادس عشر، عندما ضرب الحامية الاسبانية في بجاية عام 1509م ثم في بداية عام 1560م.

وتفشى الوباء المعروف بالحبوبت وهو مرض الجدري المعدي، ﺳﻪﺗﺮ في عهد صالح رايس سنة 1552م وأحمد أعراب سنة 1571م، كما تم تسجيله بمدينة الجزائر في 1789م، ثم من جديد عام 1803مﺷﻪﺗﺮ، و تكررت أوبئته بحدة خلال سنة 1817م إذ يقتل خاصة الأطفال ﻟﻪﺗﺮ، فبين عامي 1803م و1804م قتل مابين 2000 و3000 شخص□ ﺗﺮ.

- التيفوس (typhus): شكّل مرضا خطيرا، حيث ارتبط بسنوات المجاعة واجتياح الجراد، وهو بالتالي وباء راسخ في الذاكرة الشعبية بالحروب والمجاعات، التشرد، الفقر والبؤس□ ﺗﺮ، و تتمثل أعراضه في ارتفاع حرارة الجسم والصداع الشديد. ومما يمكن ملاحظته أن العديد من الأوبئة الأخرى لم تسجل في الجزائر كالكوليرا إلا في الفترة الاستعمارية الفرنسية ابتداء من 1834م، وهكذا شكّلت الأوبئة ظروفا صعبة لسكان الجزائر طيلة العهد العثماني أدت إلى عدم استقرار البنية الديموغرافية الجزائرية.

ج - الأمراض المتعددة:

لقد عانى سكان الجزائر إلى جانب الأوبئة، من أمراض متعددة خلال العهد العثماني، ساعد في ذلك انتشار المستنقعات بالسهول الساحلية وحول المدن الكبرى مثل عنابة والجزائر ووهران وعدم التزام السكان بالقواعد الصحية التي كانت تميز الحضارة الإسلامية ﻟﺢﺑﺮومن بين تلك الأمراض:

- الحمى بجميع أنواعها التي أصابت السكان بمختلف أعمارهم منها حمى الربيع التي تسمى بالحمى الصفراء (Fièvre jaune)، وحمى الصيف الخطيرة التي تؤدي إلى الوفاة خاصة في صفوف المسنين ﻟﺦﺑﺮ، وحمى المستنقعات المعروفة بالملاريا المرتبطة بالمياه الملوثة، حيث كانت منطقة متيجة تعاني منها فيصف حمدان خوجة ذلك: « إنني ازور هذا السهل مرة في ربيع كل سنة لأني أخشى الحمى في الفصول الأخرى، وحتى في هذه

الفترة أخذ معي ماء الكولونيا وغيره مما يقيني شر الهواء الفاسد، كما أتزود من ماء مدينة الجزائر اشرب منه، إن هذا السهل يشبه الغدير في الشتاء ، وفي الصيف والخريف تستوطنه الحمى باستمرار » ٭٭.

وذكر عالم الزراعة الفرنسي دي فونتين DE FONTAINE بأن متيجة في سنة 1784م «... مملوءة بهواء الأمراض المعدية وتتخللها من كل الجهات المياه الراكدة مشكلة مستنقعات غير صحية » ٭٭، كما كان ينتشر الرمد الذي يصيب العيون خاصة الأطفال في أغلب الأوقات ٭٭، إلى جانب ذلك لم تعرف الجزائر أمراضا خطيرة كأمراض الجلد والمفاصل وغيرها وفي ذلك يقول حمدان خوجة « ومن حيث التكوين الجسدي، فإن أجسام الجزائريين رشيقة، ذلك أن امتزاج العنصر التركي بالعنصر الأندلسي قد أنتج عنصرا مختلطا من النوع الرفيع، الأمر الذي جعلنا لا نجد في مدينة الجزائر رجالا من ذوي العاهات أو المصابين بالأمراض المزمنة مثل النقرس وغيره، كما لا نجد فيها تلك الأمراض الكريهة أو أمراض الجلد »٭٭.

د - الكوارث الطبيعية:

إلى جانب الأوبئة والأمراض تعرضت البيئة الصحية الجزائرية إلى جملة من الكوارث الطبيعية المختلفة، مثل الجفاف والجراد والزلازل والفيضانات والمجاعات التي ساهمت في تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية٭٭ ونشير إليها فيما يلي:

1 -**الزلازل**: عرفت الجزائر خلال العهد العثماني، سلسلة من الهزات الأرضية العنيفة والشديدة تسببت في تخريب وهدم العديد من المدن وكذا خسائر معتبرة في الأرواح، وتشير العديد من المصادر أن لوباء الطاعون علاقة بالزلازل، وهو ما ذهب إليه مارسي Mercier عندما تكلم عن وباء سنة 1604م حيث ذكر أنه ناجم عن الزلازل أيام حكم سليمان باشا ٭٭، ونفس الشيء يؤكده دي غرامونت من أن الأوبئة المستمرة في مدن الجزائر وقسنطينة وبسكرة نجمت عن زلزال 1639م٭٭.

كما عرفت البنية الديموغرافية لسكان الجزائر تأثيرا سلبيا أدى إلى تناقص أعدادهم كزلزال مدينتي الجزائر والمدية عام 1632م، إذ اهلك جل سكان الجزائر، كما أن زلزال 1716م الذي تعرضت له السواحل الجزائرية قد أودى بحياة ما لا يقل عن 20000 نسمة٭٭، وكذا الزلزال العنيف الذي أصاب وهران وضواحيها في ليلة 08 إلى 09 أكتوبر 1790م، فقد دمر في ظرف دقائق معدودة كل المنازل والكنائس واستمر حتى جانفي 1791م متسببا في قتل 3000 ضحية٭٭، وفي هذا الزلزال فقدت الحامية العسكرية الاسبانية ثلث رجالها، ومن بينهم الحاكم العام بالنيابة دون نيكولا غارسيا٭٭، وأثناء ذلك قام الباي محمد الكبير بإنقاذ المنكوبين بمساعدة المخزن الذي وزع الحبوب والزيوت الألبسة والخيام.٭٭

وآخر زلزال عرفته الجزائر في الفترة العثمانية هو زلزال مدينة البليدة عام 1825م الذي احدث خسائر بشرية ومادية هامة، يقول الزهار:" هذا الزلزال مات فيه خلق كثير الذي فاجأ الأمير الذي أمر الرعية بالبحث عن الناس الذين تحت الأنقاض" [ترسم].

2 -المجاعات والجفاف والجراد :

ارتبطت الأوبئة والأمراض كذالك بالاضطرابات الجوية من جفاف، وفيضانات [يرسم]، والقحط والمجاعات، إذ عرفت الجزائر مجاعات عديدة نذكر منها مجاعة 1551م التي كان عدد ضحاياها معتبرا عبر كل الإيالة الجزائرية[سمسم]، وكذا مجاعة عام 1752م التي استمرت أربع سنوات وذهب ضحيتها 1700 شخص في مدينة الجزائر وحدها في مدة ثلاثين يوما، وقد ذكر الشريف الزهار والعنتري أن الناس كانوا يموتون من جرائها في شوارع مدينتي قسنطينة الجزائر[شمسم]، واستمرت المجاعات المرتبطة بفترات الجفاف واجتياح الجراد حتى نهاية الفترة العثمانية بالجزائر مما كان يضطر الحكام إلى استيراد الغذاء من خارج الجزائر للتزود بكمية هامة من الحبوب [لهسم].

ويمكن أن نشير إلى سنوات زحف الجراد بما يلي: 1663م -1710م -1724 م -1725م -1760م -1778م -1779م -1780م، وما بين 1784م -1787م و 1798م -1799م -1800م -1804م -1816م -1822م -1824م، أما أعوام الجفاف فهي كانت في الفترة الممتدة من 1579م إلى 1580م ومن جوان 1612م إلى غاية 1609م، ومن عام 1734م إلى 1737م، ومن عام 1778م إلى 1779م وكذلك عام 1800م، وبالإضافة إلى عامي 1806م -1807م، وعامي 1816م - 1819م[سم].

وهكذا كانت الجزائر تعرف فترات الجدب والقحط مما يسبب مجاعات متكررة مما أدى إلى التزايد في عدد الأموات عبر كامل البلاد، وقد قام الباي محمد الكبير في إحدى تلك الفترات بجلب القمح من أوربا ويوزعه على السكان مجانا، وأعفى المزارعين من دفع الضرائب[سم]، أما الفيضانات فتشير بعض المصادر إلى أن هناك مساحات شاسعة من متيجة اكتسحتها المياه اثر الفيضانات التي حدثت في شهر مارس 1673م وعام 1694م[لحشم]، ومن خلال هذا نرى الارتباط الواضح بين هذه الكوارث والآفات الطبيعية وبين ظهور الأوبئة والأمراض بصورة مستمرة، جعلت البيئة الصحية الجزائرية تعرف تدهورا متواصلا طيلة الفترة العثمانية.

1- تأثير الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية على السكان:

لقد أحدثت الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية بالجزائر خلال العهد العثماني، تأثيرا مباشرا وبليغا على السكان، حيث أدت إلى تناقص أعدادهم في المدن والأرياف بشكل محسوس من خلال استنزاف ديموغرافي خطير[لخشم]، حيث عرفت الجزائر منذ القرن 18م تقهقرا مفاجئاً وسريعاً في عدد السكان ففي عام 1787م كان يموت يوميا مابين 29 إلى 30 فردا، وهذا أدى إلى هلاك 16721 نسمة في مدينة الجزائر منهم 14330 من المسلمين والباقي من الأسرى واليهود [برشم].

ومما يمكن الإشارة إليه أنه من الصعوبة أخذ فكرة دقيقة عن عدد السكان في مختلف الايالات العثمانية وليس الجزائر فحسب، لأن المسلمين يعتبرون عملية الإحصاء إثما كبيرا شأنهم في ذلك شأن اليهود [ترشم]، لكن المؤكد أن الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية كان لها دور كبير في تناقص عدد السكان، وتأثير بالغ على النواحي الاقتصادية والاجتماعية، فقد كانت دائما الأحوال الصحية عائقا أمام تحسن الأحوال المادية [يرشم].

فمن الناحية الاجتماعية فأثناء الأوبئة تستجد أعمالاً قد لا نجدها في الأوقات الأخرى مثل نشاطات بيت المال، إذ كان الوباء يطرح مشكلة الإرث وتنشط مؤسسات الأوقاف فيقول حمدان خوجة في ذلك « وفي زمن الطاعون كان لإدارة بيت المال نشاط يفوق جميع الإدارات الأخرى، فهي تقوم بإحصاء الموتى، وتعمل على تجنب الفوضى التي تتسبب فيها كثرة الوفيات،كما أنها هي التي تتولى التركات المهملة وتقوم بعمليات الميراث »[سمشم].

ولعل أخطر تأثير نلمسه للأوبئة هو هلاك أعداد كبيرة من علماء الجزائر خلال كل العهود، لما يمثلونه من ثقل فكري وحضاري هام، وفي العهد العثماني تحمل لنا مؤلفات ابن مريم والفكون العديد من أسماء العلماء الذين هلكوا بالطاعون، نستطيع أن نذكر منهم كل من أبو محمد بركات المسبح القسنطيني الذي توفي بالطاعون عام 1574م [شمشم]، وكذالك عبد الله بن محمود بن عمر التنبكتي الذي كان فقيها بارزا توفي بالطاعون يوم الاثنين عام 1597م [لهشم]،كما توفي العالم الجليل سيدي عبد اللطيف بن عبد الكريم بن بركات بن سعيد مطعونا عام1621م [شم]، وخلال طاعون عام 1647م توفي الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السلجماسي شهيدا بالطاعون في الجزائر[شم].

وتسبب الطاعون في هلاك العالم الفقيه محمد بن عبد الكريم الفكون الذي كانت وفاته رضي الله عنه عشية الخميس 24 ذي الحجة 1073هـ الموافق ل1662م[لخ لم]، ووفاة أبي سالم العياشي يوم الجمعة 18ذي القعدة عام 1679م، وكذالك وفاة العالم الجليل سيدي محمد أبو راس ابن احمد بن ناصر الراشدي الناصري صاحب التأليف التي جاوزت المائة الذي توفي مطعونا رحمه الله عام 1238هـ الموافق لـ 1822م، وقد جاوز التسعين وصلى عليه ألف وخمسمائة نفس بتحرير من حضر، جلهم حملة القرآن وعلماء وأشراف، وكان إمام الجميع تلميذه العلامة أحمد الدائح، ودفن بمعسكر[لخ لم]، هذه عينة بسيطة من علماء الجزائر مما استطعنا حصرهم الذين قضوا بالطاعون المنتشر آنذاك، ولعل القائمة طويلة لان الطاعون كان موجودا في كل الأوقات خلال العهد العثماني.

3 - سياسة حكام الجزائر من الأوضاع الصحية:

ذكرت العديد من المصادر والمراجع، بأن حكام الجزائر كانوا لا يهتمون بأمور الصحة ولا يولونها العناية اللائقة بها [بر لم]، كما لم تكن لهم سياسة واضحة إزاء ذلك، وقد نفسر هذا الإهمال بإيمان اغلب الحكام أن الأمراض والأوبئة قضاء وقدر، باعتبارها إرادة الإلهية ورحمة وشهادة في سبيل الله.

ويتضح ذالك في موقف الداي إبراهيم عندما طلب منه نائب القنصل الفرنسي فرض الحجر الصحي على سفينة فرنسية وصلت إلى ميناء الجزائر، قادمة من ميناء الإسكندرية جوان 1740م على متنها مرضى بالطاعون فكان رد الداي عليه مايلي: « إني أرى خوفك من انتقال العدوى يفسر يكونك مسيحيا، وبهذه الصفة تظن أن بإمكانك الإفلات والهروب من القدر وإرادة الله اذهب أنا تركي ولا أخشى الطاعون، فماذا يستطيع أن يفعل الطاعون، نحن أسوء واخطر منه، ولو حاول اجتياح المدينة فلدينا مدافع لمواجهته » وبالتالي أمر الداي بإنزال البضائع وتسليمها، مما أدى لانتشار الوباء ولمدة أربع سنوات ليس في الجزائر فقط بل في كل شمال إفريقيا، متسببا في خسائر كبيرة حيث تم تسجيل 400 وفاة يوميا تر ل، نتيجة إهمال الداي وعدم أخذه بنصيحة نائب القنصل الفرنسي.

ونفس الشيء نجده عند الداي دالي إبراهيم، الذي أظهر موقفا مشابها، حيث أن احد الموظفين توفي أثناء عقد مجلس الديوان، ورغم ذلك واصل الداي أعمال الجلسة دون أن يتأثر بما وقع ير ل، كما يذكر دي غرامونت أن علي شاوش رفض العلاج مستسلما للقدر حتى توفي في شهر جانفي 1718م، وهذا ربما يفسر لنا عدم اهتمام حكام الجزائر بالرعاية الطبية، وهذا ما أدى بالطبيب الانجليزي شاو يقول: « أن الجزائر لم تكن تتوفر على طبيب واحد»سه ل.

كما نقل لنا الأسير سيمون بفايفر(Pfeiffer) انه عندما سأله الخزناجي عن مهنته فرح كثيرا لما أجابه انه تعلم فن الجراحة، وقال له أنها مهنة تدر الأموال على صاحبها خاصة في الجزائر حيث لا يوجد طبيب ماهر بعد أن انتهى فن الطب العربيشه ل، ويذكر انه عندما طلب من الخزناجي كتبا طبية خاصة بالجراحة، رد عليه انه لا يستطيع أن يحضر لي شيئا، أما إذا كان بحاجة إلى كتب عربية أو فارسية أو تركية فانه يضع تحت تصرفه الكثير منها. ل ل

إن أغلب الحكام لم ينتهجوا سياسة وقائية واضحة في الوقت الذي نجد أن الأوربيين أبلوا بلاءً حسنا في اتخاذ الإجراءات الوقائية بابتكار نظام الكرنتية□ ل، حيث في ذلك قال حمدان خوجة: « فكنت رأيت بالبلاد الإفرنجية انتظام أمورهم واعتنائهم بأمور السياسة في صيانة جمهورهم، وخصوصا حيث التزموا لدفع الوباء »□ ل، وحتى في المغرب نجد أنه في أيام السلطان المولى عبد الرحمان المتوفى في عام 1822م أسس السفراء بطنجة مجلسا صحيا يهدف إلى إنشاء محجر صحي لوقاية المغرب من أضرار الوباءلح□، وكذلك نجد هذا الإجراء معمولا به في تونس فقد تحدث المؤرخ أبو القاسم الزياني عن التدابير الصحية التي اصطدم بها في تونس أثناء عودته سنة 1794م مع عدد من الحجاج، إذ لم يسمح لهم بدخول ميناء تونس إلا بعد قضاء حجر صحي لمدة 20 يوملخ□.

لقد ذكر كذلك دي غرامونت إهمال حكام الجزائر للإجراءات الوقائية بقوله أن الأتراك كانوا لا يفرضون الحجر الصحي على السفن لتفادي انتقال الأمراض بر□، وهذا نلاحظه أيضا في موقف الداي محمد عثمان خوجة عام 1786م عندما سمح للسفن المطعونة بالرسو بميناء الجزائر مما أدى إلى انتشار العدوى إلى

مدينة الجزائر ومناطق أخرى من الايالة، ويذكر مارشيكا أن المسؤولين كانوا يهددون ويعاقبون من يتكلم عن هذا المرض مثلما حدث ليهوديين وبسكريين بتاريخ 05 أوت 1786م.

كما كان بعض الدايات يلجأون إلى الهرب من الوباء، فيذكر هايدو أن الباشا محمد تكرلي، هرب من مدينة الجزائر بسبب الطاعون الذي أحدث العديد من الضحايا واستقر تحت خيمة في رأس كاكسين (CAP CAXINE)، كما فرَّ عثمان باي من مدينة وهران اثر وباء 1794 م إلى سهل ملاتة مع عائلته وحاشيته، ولم يعد إلى القصر إلا بعد ثلاثة أشهر وسميَّ ذلك الوباء من قبل السكان ب"طاعون عثمان".

إن اعتبار الحكام الفرار من الوباء نوع من الاحتراز والوقاية، وشكلاً من أشكال الحجر الصحي، ودليل على الوعي والتحلي بالحذر، فان هذا السلوك يؤثر تأثيرا سلبيا على معنويات السكان ويعطل الحياة السياسية، والأعمال وبالتالي تقليد العامة لهم أدى إلى انتقال العدوى إلى الجهات الخالية من الوباء، وهكذا ينتشر ويعم على كل البلاد.

كما لجأ بعض الحكام إلى الأطباء الأجانب وكانوا يختارونهم في الأغلب من الأسرى الأوربيين، حيث نجد الطبيب الايطالي باسكال قاريزو Pascal Grrusot حيث كان يتكفل بصحة صالح باي، والطبيب الأسير الألماني بفايفر كان يتكفل بصحة خزناجي الداي حسين عام 1829م حيث يقول « إني لاحظت الوزير يعاني من التهاب في الكبد، فقمت بوضع دم القنفذ على كبد المريض وحضرت له مزيجا من الشاي والسكر والصمغ العربي، وطلبت منه تناول المشروبات الباردة، وفي اليوم التاسع من العلاج شفي المريض من مرضه».

ومما يمكن الإشارة إليه انه إضافة إلى قلة الأطباء فان الصيدليات تكاد تكون منعدمة، إذ لم يرد ذكر سوى صيدلية واحدة بمدينة الجزائر وكانت تحتوي على مجموعة من القناني والكؤوس المحتوية على العقاقير والتوابل، يشرف عليها "باش جراح"، والذي هو جراح مسلم مسؤول عن الأطباء، حيث كان يشغل وظيفة الصيدلي والجراح والطبيب في آن واحد، بالإضافة إلى بعض المحلات(الحوانيت) التي كانت تبيع أنواعا معتبرة من الأدوية المستخرجة في معظمها من النباتات كالصبر والحلبة والقرنفل.

كما ذكر لامارك LA MARQUE أن الحكومة التركية لم تهتم بالحالة الصحية والمستشفيات في الجزائر، إذ كان همها الوحيد هو السباق نحو القرصنة، وأكد أنه قبل الاحتلال الفرنسي لم يكن هناك وجود للعناية الصحية، فالسكان يقول كانوا يعالجون في المساجد بوسائل طبية بسيطة للغاية، ويصف مصحة عقلية في زقاق باب عزون بأن ظروفها كانت مقرفة وصعبة للغاية.

لقد تواصل إهمال الحكام للحالة الصحية طيلة فترة حكمهم، رغم أنه في بداية التواجد نجد البايلرباي حسن باشا ابن خير الدين قد أسس مستشفى صغير للانكشارية والشيوخ والعجزة في عام 1549، بالإضافة وجود إلى ملاجئ ومأوى مثل مأوى بوطويل خارج باب الواد إذ كان ملجأ الأهالي الذي يجدون به

الخبز، وكان هذا المأوى وقفا للفقراء، وكذلك مأوى زنقة الهواء للأتراك والانكشاريين المعوقين، والمرضى الشيوخ، كما كانت الزوايا تتكفل بصحة السكان فكانت تأوي الفقراء والعجزة والمعوقين.

لقد عملت الدول المسيحية منذ بداية العهد العثماني، بالاعتناء بالأسرى في الجزائر، وذلك بإنشاء مستشفيات لهم خاصة اسبانيا وفرنسا، ففي عام 1665مكانت توجد بالجزائر خمسة مستشفيات تدار من قبل الأب بيدرو PEDRO [92]، وشكّلت هذه المستشفيات ملاذا آمنا للأسرى من الأمراض فيذكر كاثكارت أنه نقل إلى المستشفى حيث وجد عناية طبية من احد الأطباء الأسبان، مما جعله يسترد صحته في وقت عاجل.

وفي المقابل نجد بعض الحكام وهم قلة من اهتم بالأوضاع الصحية والإجراءات الوقائية، مثلما فعله صالح باي عام 1787م بفرضه حزام صحي حول عنابة وضواحيها لمنع انتقال وتسرب العدوى والأوبئة الفتاكة والخطيرة إلى قسنطينة، وكذالك الباي محمد بن عثمان الملقب بمحمد الكبير باي الغرب الذي كان واسع الاطلاع على علم الطب مغرما بدراسته فكان يجهز بنفسه الأدوية المختلفة ويوزعها على أفراد الشعب ليقول: « أنا طبيب الفقراء »، حيث عرفت فترته مجاعة كبيرة هلك فيها الكثير من السكان «...وحدث بأول مملكته بالمعسكر مسغبة عظيمة هلك بها أناس كثيرون إلى أن أكلت الميتة، والدم، ولحم الخنزير...».

وقد وصفه كاتبه ابن سحنون الراشدي بقوله :« وله في الطب اليد الطولى والمرتبة العليا فهو يصف إلى الناس الأدوية ويدفع لهم، حتى أن المساكين وغيرهم يفزعون إليه في ذلك كما يفزعون إلى الطبيب الماهر »، كما طلب منه تأليف قاموس طبي "المنحة القدوسية في الأدوية القاموسية" أين قام المؤلف بترتيب الأدوية ترتيبا أبجديا، وقد قدم له الباي محمد الكبير 50 قطعة ذهبية "سلطاني" نظير هذا العمل.

و يذكر كذلك ابن حمادوش في رحلته أن باشا الجزائر عام 1744م قد فرض الحجر الصحي على مركب حجاج من الإسكندرية، فيقول« وفي الثالث رجب الموافق آخر يوم من يوليه قدم علينا مركب من إسكندرية بالحجاج، فيه الوباء فمنعهم الباشا الدخول، حمية من أن يقوم ممرض عن مصح. إلى ثامن عشرة، موافق خامس عشر أغشت، أذن لهم في الدخول، بعد تحقق سلامتهم من المرض المذكور ».

كما كان بعض الحكام يتخذون إجراءات مهمة أثناء الكوارث الطبيعية، حيث يذكر الزهار« وجاء الجراد في هذه السنة، أوله أتى طائراً، ثم غرس وأقام أياماً في الأرض ثم خرج وأكل الزرع والأشجار والثمار ووقع الغلاء في تلك السنة، وأعطى الأمير القمح لجميع الخبازين وجعل له سعراً مناسبا على سعر أيام الرخاء ... وبقي الأمر كذالك إلى أن وجد الزرع الجديد».

4 - الثقافة الطبية عند سكان الجزائر:

إن تدهور الأوضاع الصحية للمجتمع الجزائري، أحدث ثقافة طبية متباينة عند السكان، حيث كانت النظرة للصحة والمرض تختلف باختلاف الثقافات آنذاك، فالصحة والمرض ظواهر ثقافية مثل ما هي

ظواهر بيولوجية من حيث ثقافة التفسير والاعتقاد الخاصة بها، فالثقافة هي التي تحدد للمريض تقييمه وتصوره لحالته المرضية وردود أفعاله تجاه المرض، فهو إما يذهب إلى الطبيب أو يذهب إلى المعالج المحلي أو الساحر، أو يتجاهل تماما أعراض مرضه، فتقييم المريض وسلوكه تجاه مرضه، أمر يختلف باختلاف الخلفية الثقافية والاجتماعية [برلح لخ].

فهناك من اقتصرت نظرته على أن الأوبئة والأمراض إرادة إلاهية، وبالتالي لابد من الاستسلام للقدر إلى درجة عدم التحلي بالصبر والوقاية من العدوى، فقد كانت النساء مثلا يصبن بأمراض معدية بمجرد احتكاكهن بأمواتهن أثناء البكاء عليهم، وقد تكون تلك التصرفات عن جهل أو تفسير جزئي وخاطئ للأحاديث الشريفة التي تنص على القضاء والقدر، مثل حديث الرسول الكريم: « ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك » وقوله عليه السلام: « لا يغني حذر من قدر » وقوله أيضا: « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » [ترلح لخ].

الاستسلام للقدر والمكتوب جعل تفسير كل المصائب على أنها إرادة الله، سواء كانت أمراضا أو كوارث طبيعية كالزلازل والجفاف والجراد، وهذا ما ذكره الطبيب شو بقوله: «... ومع ذلك وحتى أقدم فكرة عما وصلت إليه العلوم والفنون في بلاد البربر أشير بادئ ذي بدء، إلا أنه فيما يخص الطب، فإننا نفتقر افتقارا كليا لأطباء أكفاء حيث تنتهي غالبية الأمراض الخطيرة بالوفاة أو المرض المزمن حيث أن كثيرا من المسلمين يؤمنون بمبدأ القدر الإلهي ... » [يرلح لخ].

وهكذا أدى التصور الثقافي والديني للأمراض والأوبئة من طرف سكان الجزائر إلى قبول الداء وانتظار الشفاء من الله، دون اتخاذ الأسباب والبحث عن الدواء، فقد كان ذلك ثقافة سائدة عند السكان والحكام على السواء، وحتى عند بعض العلماء، فالسكان كثيرا ما كانوا يرفضون تلقي العلاج، وقد ذكر شو أن السكان « يرفضون بعناد تلقي أي نوع من الإرشادات الطبية ويمتنعون عن تناول أي نوع من أنواع العلاج، في حين يسخر آخرون مما يمكن أن يقدمه الطب من إسعافات، فيعهدون بأنفسهم كلها إلى حكم الطبيعة وحدها »[سملح لخ].

وإذا اجتاح الطاعون المسلمين فهو فضل إلاهي، إذ يعد كل مسلم أن الوباء إذا أودى بحياته فهو شهادة في سبيل الله مثل سقوط المجاهدين في المعارك، فالمسلم الحقيقي هو الذي يصبر ويرضى بالمرض[شملح لخ]، وهذا تأكيدا للأحاديث النبوية التي تحض المسلمين على عدم الخروج من الأراضي التي أصابها الطاعون لقوله عليه الصلاة والسلام: « إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه » وحديث أن « الطاعون شهادة لكل مسلم ».

ومن جانب أخر أحدثت الأوبئة والأمراض حالة من الخوف لدى السكان كونت لديهم كذلك ثقافة احترازية وعلاجية مميزة، وكثيرا منها كانت سلبية وخطيرة مثل الهروب من مناطق الوباء مما يتسبب في انتشاره بسرعة مخيفة عبر الأرياف والمدن، ففي وباء 1740م كل المنازل أخليت من قبل السكان في مدينة

الجزائر [لهلحلخ]، وتكون وجهتهم في اغلب الأحيان الجبال كما فعل عثمان باي عام 1794م أو إلى الأرياف والصحراء.

كما نجد فئة أخرى من السكان خاصة في المدن يكتفون بالبقاء في منازلهم أثناء الوباء، امتثالا للحديث النبوي الشريف الذي ينص على عدم الخروج من الأرض التي يحل بها الوباء،كما أن الأسرى الذين يصيبهم الوباء يحوّلون إلى المستشفى المجاور للسجن، حتى يمتثل إلى الشفاء أو يموت فيدفن وتشيع له جنازة محترمة[لحلخ].

وفي بعض المناطق نجد ثقافة احترازية واعية من الأمراض والأوبئة، فكان السكان لا يستقبلون الوافدين عليهم دون التأكد من سلامتهم خاصة وفود الحجيج، ويتبعون نظاما احترازيا محكما عند التعامل مع من يشكون في إصابتهم بالوباء كأنه حجر صحي معتمد، وهذا ما ينقله لنا سالم العياشي[لحلخ] أثناء عودته من رحلة الحج عندما مر على منطقة الأغواط حيث يقول: « ونزلنا الأغواط قبل الظهر يوم الأحد السادس عشر من رمضان، وكان في الركب أعراب سعاة من دمك يتكففون الناس فقالوا لأهل البلدان: في الركب وباء، فلم يتركوا أحدا يدخل إليهم، ووجدنا الغلاء كثيرا عندهم مقدار مدين فاسيين بريال قمحا، فلم يخرج منهم إلى الركب، وكانوا يدلون الزرع من فوق السور ويأخذون الريال ويغسلونه ولا يتناولونه إلا بعد الغسل »[لحلخلخ].

ونفس الشيء ذكره حمدان خوجة من أن خشيته من الحمى في سهل متيجة جعله يغسل بماء الكولونيا وغيره ليقيه شر الهواء الفاسد[لخلخلخ]، ويحذر من عدم الاحتراز فيقول: « لهؤلاء النساء اللاتي لا يتوقفن عن الاشتغال، إنهن قذرات لا يعتنين بهندامهن، الأمر الذي يجعلهن عرضة للحمى ولغيرها من الأمراض »[برلخلخ].

إلى جانب ثقافة الاحتراز كان السكان يلجئون إلى معالجة العديد من الأمراض معتمدين على وسائلهم الخاصة ومعتقداتهم في ظل إهمال الحكام لأوضاعهم الصحية، وذلك امتثالا للسنة النبوية الشريفة، إذ أمر الرسول الكريم أمته بالتداوي وطلب الشفاء لقوله عليه السلام: « ما أنزل اللّه من داء إلا أنزل له الشفاء »[ترلخلخ] وقوله: « لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن اللّه عز وجل »[يرلخلخ]، كما استعمل السكان الطب التقليدي المتوارث كدواء لبعض الأمراض كما اعتمدوا على الأدعية والأحجبة والتمائم للتخفيف عن مرضاهم من الم المرض[سملخلخ]، فكثيرا ما يلجأون إلى الحمية للتداوي خاصة من الحمى[شملخلخ].

ويذكر بربرغر أن للجزائريين وسائلهم الخاصة في حالة وجود مرض، حيث يذكر انه لعلاج الحمى كان يلجأ قائد السفينة إلى مطالبة الجدافين المصابين بالحمى بمواصلة الجدف مقدما لهم حمية خاصة تساعدهم على إخراج العرق، وفي بعض الأحيان يوهم المصاب بالحمى بأنه سيحرقه فيلوذ بالفرار فيخرج منه العرق ويشفى بعد ذلك [لهلخلخ]، كما كانوا يعالجون مرض الزهري بحمية من أصعب ما يكون، وكان المريض يشفى شفاء تاما في ظرف شهرين[لخلخ].

أما وباء الجذري حسب شو يعالجونه بترك المريض في مكان معتدل الحرارة ويناولونه من وقت إلى أخر بعض حبات الكرمس (التين) المجفف الممزوج في العسل، وأن العرب يعالجون كل أشكال الإصابات من الأسلحة البيضاء أو النارية بوضع الزبدة على الجراح□[لخ لخ]، كما كانت الحناء وسيلة لعلاج الحروق والجروح، وكانوا يتغلبون على لدغة العقرب والأفعى بوضع البصل والثوم على مكان اللدغة[لح برلخ].

وكانت للنساء قوابل معروفات بالمهارة في التوليد والاهتمام بصحة المولود وأمه، عن طريق نظام غذائي جيد كالعسل وزيت الزيتون والحليب والعديد من النباتات « إن خبرة هؤلاء النسوة كانت بالغة بخصوص عمليات الولادة فهذه الطرقات كانت بدائية محضة، والملفت للانتباه أن جميع النسوة كانت على دراية بالعقاقير والأعشاب الطبية المستعملة، فكل واحدة منهن تتعلمها من والدتها ومن نساء أخريات كبيرات في السن »[لخ برلخ].

كما لجأ العديد من السكان إلى استعمال البخور والعلاج بالمياه المباركة، وتعاطي الشعوذة قصد الشفاء وإزالة آثار السحر والوقاية من الحسد، كما كانت زيارة الأولياء والمرابطين أمرا شائعا لاعتقادهم بأن زيارة المقام تنزل عليهم البركة، وتقيهم من الأمراض والأوبئة، « وقد كانت النساء يزرن القبب بانتظام كي يقدمن القرابين ويوقدن المصابيح الزيتية، ويضعن الزهور لتدعيم التدخل الديني الذي يطلبنه بغية أبعاد المصاعب الاجتماعية والعائلية »[بر برلخ].

ولقد ذكر ابن خلدون أن تلك الثقافة قديمة عند العرب إذ عرفوا منذ القدم الطب الذي يعتمد على التقليد وإتباع طرق من سبقوهم، وان كانت معظمها خرافية وبعيدة عن الدين والسنة « ولأهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر من تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، ويتداولونه متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض »[تر برلخ].

الخاتمة: من خلال هذه الدراسة المتواضعة التي قمنا بها حول الأوضاع الصحية بالجزائر خلال العهد العثماني، نستطيع تسجيل بعض الاستنتاجات والملاحظات التي توصلنا إليها والتي تعكس الواقع الصحي آنذاك وهي:

- إن الأوبئة والأمراض التي تعاقبت على الجزائر اثناء الوجود العثماني، أدت إلى تدهور الأوضاع الاجتماعية والمعيشية للسكان، خاصة مرض الطاعون القاتل الذي كان آفة مرعبة متكررة بصورة دائمة آنذاك، حيث عانت منه كل الفئات الاجتماعية.

- رغم انتشار الأوبئة فقد سجلت لنا المصادر والمراجع أن الأمراض الأخرى لم تكن منتشرة كثيرا في المجتمع الجزائري، وذلك لاهتمام السكان بالجانب الصحي واعتنائهم بنظافة ملابسهم ومنازلهم، فكانوا يغسلون أيديهم لأداء الصلاة وقبل تناول الطعام، جعل الأوربيين يعتقدون أن ظاهرة الغسل المتكررة عند الجزائريين شذوذا، ومما يؤكد اهتمام الجزائريين بنظافتهم الأعداد الكبيرة للحمامات المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد آنذاك.

- إن الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية، شكّلت لسكان الجزائر في الأغلب قدرا محتوما وإرادة إلهية لابد من الاستسلام لها، وعدم اتخاذ أي احتراز ووقاية تنافي هذا الاعتقاد، حيث أن الوضع الصحي المتدهور والغير مستقر الذي كانت تعرفه الجزائر أثناء العهد العثماني قد أفرز نوعا من العلاج امتزج فيه الطب بالخرافة والشعوذة، فقد كان التكفل بصحة السكان ومعالجتهم يعود إلى الطالب أو المرابط في أغلب الأحيان عبر وصفات علاجية متوارثة أو موجودة في كتب الأولين، مثل كتاب القانون لابن سينا و تذكرة الأنطاكي في أحسن الأحوال، أو من خلال القرآن والسنة النبوية باعتماد الرقية في علاج مختلف الأمراض.

- عناية حكام الجزائر بالجانب الصحي لم يتعدى اهتمامهم بشؤون صحتهم الخاصة، حيث لم يقوموا بتشجيع دراسة الطب في المدارس، ولم ينشئوا أكاديميات طبية للبحث في مثل هذه العلوم، فمعظم الباشاوات والبايات جلبوا لأنفسهم أطباء أوربيين أو من المقيمين في الجزائر لأغراض تجارية أو سياسية، ومن الأسرى الأجانب، ماعدا استثناءات قليلة من خلال مساعي باي وهران محمد الكبير وتشجيعه للأطباء.

الهوامش:

[1] ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر"ج2"، م.و.ك، الجزائر، 1988، ص 124.

[2] الطاعون: مرض تتسبب فيه جرثومة يارسين، ويصيب في أغلب الأحيان أنواعا عديدة من الحيوانات القارضة خاصة منها الفئران، نقلا عن: عائشة غطاس "الوضع الصحي في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة الثقافة، عدد 76، الجزائر، 1983، ص24.

[3] فلة موساوي - القشاعي، الصحة والسكان في العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر2003 -2004، ص49.

[4] سعيدوني، درسات...، مرجع سابق، ص 126.

[5] القشاعي: «وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله»، مجلة دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، عدد1، سنة 2001، ص134.

[6] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 417.

[7] *A.* BERBRUGGER,*"*mémoire ***sur la peste*** *en Algérie" en* exploitation scientifique *de* l'Algérie, imp. *Royal, paris* 1847, *P.* 180.

[8] *H. D .DE GRAMMONT, Histoire D'Algérie sous la domination Turque (*1515,1830*), Ed. Ernest Leroux, paris,* 1887, *P.P.*17-18.

[9] JEAN.*MARCHIKA,* ***La*** *peste en Afrique septentrionale: Histoire de la peste en Algérie de* 1363 à 1830, *julien carbonal, Alger* 1927, *P* .24.

[10] BERBRUGGER, op. cit.,p.206.

[11] MARCHIKA, op. cit., p.29.

[12] A.DEVOULX,"assassinat du pacha Mohamed tekekerli" in R.A. N°15, Année 1871,o.p.u, Ed. Bastide, Paris 1871, p.82 .

[13] DIEGO DE HAËDO, Histoire des rois d'Alger, traduit par H.D. De Grammont, Adolphe Jourdan, Ed Alger, Alger1881, P.120.

[14] DEVOULX, Quelques tempêtes à Alger, in R.A. N°15, 1871, p. 342 .

[15] محمد الصالح بن العنتري، فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، أو تاريخ قسنطينة ،مراجعة وتعليق يحي بوعزيز، د.م.ج. الجزائر1991، ص 33.

[16] MARCHIKA, op. cit,, p.37.
[17] LUCIEN RAYNAUD, Épidémies de peste dans la régence d'Alger:cas de peste survenus dans la colonie de 1899 a 1924, p.306.
[18] MARCHIKA, op. cit.,p.48.
[19] MARCHIKA, op. cit.,p .49 .
[20] *DE GRAMMONT*, op.cit., p.203
[21] Idem, p.268-269
[22] MARCHIKA, op. cit., p.75
[23] Idem, p. 80
[24] الحسين بن محمد الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تصحيح محمد بن شنب، مطبعة بيير فونتانا، الجزائر 1908، ص87.
[25] أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (1754 -1830)، ش. و. ن. ت، الجزائر 1974، ص51 .
[26] مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر1979،ص ص39 -40.
[27] توفيق المدني، مذكرات...، مصدر سابق، ص151.
[28] المصدر نفسه، ص 144.
[29] MARCHIKA, op.cit., p. 168.
[30] Idem, p.178.
31 Idem, P.162.
[32] Idem, P.178.
[33] سعيدوني، درسات...، مرجع سابق، ص 124 .
[34] عائشة عطاش:"الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني"، عن مجلة الثقافة،ع76، الجزائر، 1983، ص126.
[35] عبد الله بن محمد الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر، تحقيق وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2006، ص141.
[36] MUSTAFA KHAIATI, Histoire de la médecine en Algérie, Edition ANEP 2000, p 253 .
[37] MARCHIKA, op. cit., p.156.
[38](c) BOUTIN, Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, publié par G. Esquer, Paris 1927,P. 67 .
[39] KHIATI, op. cit., p. 246.

[40] سعيدوني ، درسات...، مرجع سابق، ص 124 .
[41] MARCHIKA, op. Cit., p. 156.
[42] حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر 1982، ص ص 87.88.
[43] وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعليق وتعريب عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر 1980، ص 115.
[44] HAËDO, op. Cit., p.492.
[45] حمدان خوجة، مرجع سابق، ص 105 .
[46] سعيدوني، م درسات...، مرجع سابق، ص 127.
[47] E. MERCIER, Histoire de Constantine, Constantine1903, P. 219.
[48] *DE GRAMMONT*, op. cit., p.189.

[49] سعيدوني، درسات...، مرجع سابق، ص 128.

[50] *DE GRAMMONT*, op, cit., p.343.

51 أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ط2، ش.و.ن.تن، الجزائر 1976، ص 524.

[52] MOULOUD GAID, l'Algérie sous les turcs, Edition minioumi.2ed, Alger 1991, p.165.

[53] توفيق المدني، مذكرات...، مصدر سابق، ص155.

[54] DEVOULX, quelque tempête à Alger, In R.A N°15, 1871, p 342 .

55 MARCHIKA, op.cit. p24.

[56] سعيدوني، درسات...، مرجع سابق، ص 130.أنظر كذلك محمد صالح العنتري، مجاعات قسنطينة *سنين القحط و المسغبة ببلاد قسنطينة،* مخطوط رقم 2330، المكتبة الوطنية الجزائرية.

[57] HAËDO, op. cit. p84.

[58] سعيدوني، درسات...، مرجع سابق، ص129.

[59] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، د م ج، دار الثقافة، بيروت1982، ص 261.

[60] المرجع نفسه، ص129.

[61] سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000، ص 569 .

[62] المرجع نفسه، ص 127.

[63] (DSD), JUCHEREAU, Considérations statistiques, Historiques, militaires et politiques sur la régence d'Alger, De Lanny lib, Paris 1831, P.40.

[64] سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني، م.و.ك، ط2، الجزائر 1985، ص 52.

[65] حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 136 .

[66] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، ص47.

[67] أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، المكتبة العتيقة، تونس 1985، ص 252.

[68] الفكون، مصدر سابق، ص 78.

[69] الحفناوي، مرجع سابق، ص 73.

[70] المرجع نفسه، ص 166.

[71] المرجع نفسه ، ص 342.

[72] سعيدوني، ورقات ...، مرجع سابق، ص 125.

[73] MARCHIKA, op. cit., p. 79.

74 DE GRAMMONT, op.cit., p. 278.

75 SHOW, op. cit., p. 80.

[76] سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تعريب وتقديم أبو العيد دودو، ش.و.ن.ت الجزائر 1979، ص 25 .

[77] المرجع نفسه، ص48 .

[78] الكرنتية: بمعنى أربعين، حيث يحجز الوافدون من الخارج الذين يشتبه في مرضهم، أربعين يوما حتى تثبت سلامتهم من الوباء.

79 حمدان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، وزارة الثقافة، الجزائر 2007، ص 45 .

80 محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج2، مؤسسة تنشرة للنشر والطبع، الدار البيضاء، ص ص140 -141.

81 أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي، دار النشر، الرباط 1991، ص 471.

82 DE GRAMMONT .op.cit.,.P.410.

83 MARCHIKA .op cit., p.123.

84 E. WATBLED, "Documents inédits sur l'assassinat du Pacha TEKERLI, (1556-1557), In R.A N°15. P.338.

85 MARCHIKA, op. cit., p. 145.

86 بفايفر، مصدر سابق، ص 26 .

87 LAMARQUE (Léonce), la Recherche Historique sur la médecine dans la régence d'Alger, Alger1951, p p 53-54 .

88 Idem, p p130-131.

89 HAËDO, "topographie ..." In RA, n°15,année 1979,p p 202-237 .

90 KHIATI, op. cit., p.101.

91 سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ص 270.

92 KHIATI, op. cit., P. 85.

93 جيمس كاثكارت، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، د م ج، 1982، ص 33.

94 سعيدوني، درسات...، مرجع سابق، ص 125 .

95 احمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766 - 1791)، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 142 .

96 محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، م و ف م، الجزائر2007، ص 205.

97 ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر 1975، ص147م.

98 KHIATI,op. cit, p.121.

99 هو داي الجزائر بابا إبراهيم (1732 م - 1745م).

100 عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال "، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، ش.و.ن.ت ،الجزائر، 1983، ص 121.

101 توفيق المدني، مذكرات...، مصدر سابق، ص117.

102 محمد عباس إبراهيم، المدخل إلى الأنثروبولوجيا الطبية (الثقافة والمعتقدات الشعبية)، ج2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1992، ص 274 .

103 أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار إبن حزم للنشر والتوزيع، بيروت، 2003.الحديث تحت رقم5707، ص150.

[104] DR SHAW, Voyage dans la Régence d'Alger, traduit de l'anglais par j.Mac.carthy, Ed. Bouslama, Tunis 1980, P 81 .

[105] Idem, p81.

106 فلة موساوي، مرجع سابق، ص 229.

[107] MARCHIKA, op cit, p. 86 .

[108] كاثكارت، مصدر سابق، ص 104 .

[109] هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى العياشي، ولد سنة 1037هـ /1628م، وتوفي بالطاعون سنة 1090هـ/1679م، عرّف برحلته الشهيرة إلى الحجاز.

[110] عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية (1661 -1663)، حققها وقدمها: سعيد الفاضلي وسلمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة 2006، ص 546.

[111] حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 87.

[112] المصدر نفسه، ص 74.

[113] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، مصدر سابق، ص1075.

[114] زكي الدين المنذري، مختصر صحيح مسلم، دار ابن حزم، بيروت 2001، ص 532.

115 VENTURE DE PARADIS, Alger Au XVIII Siècle ,Typographie Adolphe Jourdan, Imprimeur-Libraire Editeur, Alger1988, P.147.

[116] حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 74.

[117] BERBRUGGER,"Charte des Hôpitaux chrétiens 1694 " in RA N°8. Alger 1864, pp 133-134.

[118] حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 105 .

[119] SHAW, op. cit., p. 83.

[120] سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 418 .

[121] MATHEA GAUDRY,"La Femme Chaouia De L'Aurès", ED CHIHAL, Alger1998, p. 230.

[122] وليم سبنسر، مصدر سابق، ص 105.

[123] عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان 2003، ص 491.